III- الملاحظة:

الملاحظة من أدوات الدراسة التي يتم استخدامها للحصول على بيانات متعلقة ببعض الحوادث والوقائع وذلك من خلال الرصد والتدوين من قبل الباحث، وتعتبر من أكثر أدوات الدراسة دقة ويمكن تسجيلها وتصويرها على أشرطة سمعية ومرئية.

و تعني الملاحظة في البحث العلمي المشاهدة و المراقبة الدقيقة لسلوك أو ظاهرة ما، بغية الوصول إلى المعلومات الدقيقة عنها.

كما أن الملاحظة هي توجيه الحواس و الانتباه إلى ظاهرة ما أو مجموعة من الظواهر رغبة في الكشف عن صفاتها أو خصائصها والوصول معرفة جديدة عنها، كملاحظة سلوك الأطفال أثناء اللعب أو الأكل أو نمط و درجة التفاعل الاجتماعي بين المجموعات البشرية المختلفة، وتعتمد طريقة الملاحظة بالدرجة الأولى على قابلية الباحث و قدرته على الصبر و الانتظار من أجل تسجيل الملاحظات و الاستفادة منها.

يجب على الباحث استخدام الملاحظة كأداة لجمع بيانات الدراسة في حالة القيام ببحث موجه أو لمتابعة أحداث معينة أو التركيز على أبعاد محددة دون غيرها، فتستخدم الملاحظة في هذه الحالة لأن الإنسان يستطيع التمييز بين الأشياء ذات الصلة والأشياء غير ذات الصلة وانتقاء ما يلزم من معلومات والتركيز عليها.

كذلك في حالة رصد السلوك الاجتماعي في المواقف الطبيعية، حيث يمكن للمقابلة أو للاستبيان أن تؤثر على إجابات المبحوثين في محاولة لإرضاء الباحث أو لإخفاء معلومات لا يرغبون في التعبير عنها.

أضف إلى ذلك حالات البحوث التجريبية، ففي كثير من الأبحاث يتم عمل مجموعات ضابطة ومجموعات تجريبية، ويتم فيها رصد الاختلافات بين المجموعتين باستخدام أداة الملاحظة، وذلك يضمن للباحث التحكم في البيانات المستقبلة ورصد الاختلافات بشكل فعّال.

لذلك ففي الحالات التي يرغب فيها الباحثون في الحصول على معلومات نوعية وليس كمية يتوجب عليهم استخدام الملاحظة كأداة لجمع بيانات الدراسة، خاصة وأن الملاحظة يتم فيها وصف المعلومات والبيانات بطريقة تفصيلية وتعكس مختلف التأثيرات التي تصاحب وقوع السلوك بصورة حية.

1- مستويات الملاحظة:

- الإنتباه:

يشير إلى حالة تأهب عقلي أو حالة من اليقظة يباشرها الفرد كي يحس أو يدرك وقائع أو ظروف معينة، حيث أن الفرد يتعرض لمثيرات بصفة مستمرة، فالشبكة العصبية لا تستطيع أن توصلها كلها معا إلى المخ كي يقوم بتفسيرها، لذا ينتقي الملاحظ المثيرات التي يريد أن يستقبل رسائل منها حيث يطلق على هذه العملية الانتباه .

وعلى الرغم من أهمية الانتباه في الملاحظة إلا أنه قد يؤدي إلى أخطاء معينة ينبغي للباحث أن يحتاط منها.

فإذا تملك الباحث قلق بشأن الفرض الذي وضعه في البحث، فيصوب نظره فقط إلى الوقائع التي تؤيد الحل المقترح للمشكلة المطروحة، فإن ذلك قد يؤدي إلى ملاحظة الوقائع التي يريد أن يتوصل إليها ويتجاهل الوقائع الأخرى التي لا تتفق مع نظريته، ولاستبعاد مثل هذا التحيز ينبغي أن يتمتع الباحث بدرجة عالية من النقد إزاء ما يقوم بملاحظته.

- **الإحساس:**

يصبح الإنسان واعيا بمحيطه عن طريق حواسه، فالتغيرات التي تحدث في بيئته الداخلية أو الخارجية تثير أعضاءه الحسية مرورا إلى السيالة العصبية لتترجم المثير إن كان صوتا أو رائحة أو صورة و من ثم تعتمد دقة الملاحظة على سلامة الحواس و دقتها.

فالشخص الذي يتمتع بحواس سليمة يمكنه التمييز بين الخصائص السمعية و البصرية وأن يحس بالبرد و الدفء، الألم و اللذة وأن يتذوق الأطعمة الحلوة والمرة والمالحة...، وأن يميز بين مختلف الروائح، إلا أن الحواس أحيانا لا يمكن الوثوق بها للحصول على مقاييس دقيقة للسرعة، المسافة الحجم أو الشدة ، كما أن الإعاقة في بعض الحواس تؤدي إلى التقليل من القدرة على ملاحظة الظواهر ملاحظة دقيقة .

- **الإدراك:**

ليست الملاحظة مجرد إحساسات نخبرها وإنما هي إحساس مضاف إليه الإدراك، فالإحساس هو النتيجة المباشرة لاستثارة الحواس، والمعلومات التي يتلقاها الفرد عن طريق الإحساس ليست ذات نفع إلا إذا قام بتفسيرها، فقد يسمع أحد الأشخاص صوتا ما لكنه يبقى مجرد ضوضاء حتى يتعلم كيف يوحد بينه وبين صوت الجمهور مثلا ، أو صوت العداء أثناء الجري أو القفز...

أما الإدراك فهو فن الربط بين ما يحسه المرء وبعض خبراته الماضية ليعطي للإحساس معنى.

- **التصور:**

على الرغم مما للإدراك من أهمية بالغة، فإن أوجه قصوره تتضح بجلاء حينما يحاول الباحث أن يعتمد عليه وحده فهناك ظروف يواجه الباحث مواقف محيرة ويكون غير قادر على إدراك كل العناصر المتعلقة بالموقف، وليتجاوز ذلك الموقف الحرج و فهم طابع المشكلة عليه أن يعمل على أساس التصور أي يقوم بتخمينات مختلفة عما يحتمل حدوثه في موقف ما.

فالإنسان بصفة عامة يتغلب على ما في حدود الخبرات الإدراكية من قصور عن طريق بناء تصورات ذهنية – فروض و نظريات - تصور ما لا يستطيع أن يدركه بطريقة مباشرة، فبعد بناء خطة تصورية يعيد الباحث ملاحظة الموقف المحير ليرى ما إذا كان يستطيع أن يجد حقائق تتلاءم مع ذلك الإطار التصوري.

2- خطوات إجراء الملاحظة:

- تحديد الهدف الذي يسعى الباحث الوصول إليه.
- تحديد الاشخاص الذين سيخضعون للملاحظة.
- تحديد الوقت اللازم و الفترة التي تحتاجها الملاحظة، فقد تستغرق وقتا طويلا أكثر من الوقت المخصص للباحث.
- ترتيب الظروف المكانية و البيئة المطلوبة لإجراء الملاحظة.
- تحديد المجالات و النشاطات المعنية بالملاحظة.
- تسجيل المعلومات و التأكد من صحتها.

3- أنواع الملاحظة:

- **الملاحظة العادية البسيطة أو العابرة:**

وهي موجودة عند الإنسان العادي وليس لها علاقة بالكشف العلمي، بل أساسها النفع العام المتعلق بالحياة اليومية العملية، فضلا عن عدم توفر الربط بين عناصر الظاهرة الواحدة أو الظواهر الأخرى، أيضا تحتوي على عنصر الفضول والعفوية، تحدث طالما أن الحواس سليمة و متيقظة، لكنها قد تكون سببا للملاحظة العلمية واكتشاف قوانين الطبيعة.

- **الملاحظة العلمية:**

تهدف إلى الكشف عما هو جديد في الظاهرة، ليصبح جزء مكملا لنسق معرفة الباحث عن العالم، و تعتمد على الحواس التي تعد بمثابة الأدوات المباشرة للملاحظة، كما قد تعتمد على الآلات الدقيقة، لذلك لابد من سلامة الحواس ودقة حساسيتها حتى تؤدي وظيفتها بفعالية، لاسيما حاسة البصر.

و من المعروف ان الملاحظة تختلف من شخص لأخر.، كما لا يمكن اعتبار الملاحظة حسية صرفة، بل للعقل دور فيها.

- **الملاحظة المسلحة:**

لما كانت الظواهر لا تعمل تحت طائلة حواس الإنسان بسبب صغرها أو بعدها أو سرعتها الشديدة أو بطئها الشديد أيضا، وجب استخدام الآلات العلمية الدقيقة التي تزيد من دقة الملاحظة، كاستخدام الميكرو سكوب في علم التشريح واستخدام آلة قياس الضغط مثلا... للتدقيق في الملاحظة .

فالظاهرة المعقدة لا تستطيع الحواس ملاحظتها إن لم تستخدم الآلات و المعدات التي تزيد من قدرتها على الملاحظة الدقيقة.

- **الملاحظة الكمية والكيفية:**

قد تكون الملاحظة في بعض العلوم ذات طابع كيفي بينما البعض الآخر تتخذ طابعا كميا، حيث يستخدم الباحث بيانات كمية كالعدد، الحجم ، القياس، الوزن للوصول إلى نتيجة ما.

أما الملاحظة الكيفية فتستخدم مثلا في البيولوجيا، حيث يركز الاهتمام على الصفات التي تميز نوعا معينا من النباتات أو الحيونات عن نوع آخر أو فصيلة عن الفصائل الأخرى، أي الاهتمام بالصفات و الكيفيات النوعية.

فإذا كانت الملاحظة الكيفية تستند إلى الوصف القائم على التعريف و التصنيف، فإن الملاحظة الكمية تستخدم الرياضيات (الصيغ الرمزية) من خلال معرفة دقيقة بعمل الآلات و الأجهزة و دلالة الإحصاءات التي تقيس علاقات رياضية بين عدة متغيرات.

و هناك أنواع أخرى **كالملاحظة المقصودة، المباشرة، الملاحظة بالمشاركة** و **دون مشاركة** و **الملاحظة بالمعايشة** ا لتي تستخدم كيثرا في الدراسات الحقلية الاجتماعية و الأنثروبولوجيا.

4- شروط الملاحظة العلمية:

- أن تكون الملاحظة كاملة.

- أن تكون نزيهة.

- تمتع الباحث بسلامة الحواس.

- سلامة و دقة الأجهزة المستخدمة في الملاحظة.

- عمل حساب كل الظروف المحيطة بإجراء الملاحظة ونقصد بالظروف الفيزيقية : الضوضاء، الحرارة، البرودة، الرطبة، الإضاءة، التهوية...

- العناية بتوجيه كل الانتباه أثناء الملاحظة، حتى لا يغفل شيء من الأشياء مع مراعاة أن العقل لا يلاحظ إلا ما اتصل بحاجاته الخاصة، لذا نختار دائما من الظواهر ما يتفق واتجاهاتنا وأغراضنا.

- يأخذ الباحث في الحسبان عملية الخلط بين الفكر و الواقعة، لكون الوقائع لا تظهر كما هي بل سرعان ما نحيلها إلى حقائق وأفكار مجردة.

5- مزايا و عيوب الملاحظة:

- **المزايا:**

- المعلومات المجمعة عن طريق الملاحظة أعمق، أين تتغلغل إلى أعماق و أسباب المشكلة و الموضوع المراد دراسته.

- معلومات أكثر شمولية و تفصيل، حيث تكون الملاحظة مفصلة بحيث تؤمن للباحث كل المعلومات التي يريد الحصول عليها، بل و تؤمن حتى معلومات إضافية لم يكن الباحث يتوقعها .

- معلوماتها أدق، فهي أقرب ما تكون إلى الصحة و أكثر دقة من أي أسلوب آخر.
- العدد المطلوب ملاحظته هو أقل مقارنة بالأدوات الأخرى.
- الملاحظة تسمح بتسجيل النشاط أو السلوك ساعة حدوثه.

- **العيوب:**

- قد يعمد الكثير ممن يقعون تحت الملاحظة التصنع و إظهار ردود فعل وانطباعات مصطنعة إلى الشخص القائم بالبحث.
- كثيرا ما تتدخل عوامل خارجية تعيق الملاحظة مثل حالة الطقس و العوامل الشخصية للباحث.
- أنها محدودة بالوقت الذي تقع فيه الأحداث و قد تحدث في أماكن متفرقة لا يتسنى للباحث وجوده فيها كلها.
- الحياة الخاصة للأفراد لا يسمح فيها بالملاحظة.